

التراث العربي

مجلة فصلية تصدر عن اتحاد الكتاب العرب - دمشق

العدد: 79 - محرم - 1421هـ - نيسان - إبريل - 2000 - السنة العشرون



المحتوى :

ص

- الأضداد في اللغة العربية.....
.....
نصر الدين البقرة 7
- التعدين أساس علم الكيمياء.....
.....
أ.د. محمد زهير البابا 23
- ملزمة من كتاب قديم، وقصتها.....
.....
د. عبد السلام المجيلي 50
- مع الدكتور شوقي ضيف في مقدمة الرد على الفحاة.....
.....
د. جميل علوش 63
- ابن الأثير الجزري وكتابه المثل السائر.....
.....
د. سمير روجي الفيصل 70
- التشبيه الدائري في الشعر الأموي.....
.....
د. اسماعيل أحمد العالم 77
- تحليل نص من رسالة التوابع والزوابع.....
.....
نادر حقاني 95
- من تاريخ الطب عند العرب.....
.....
د. شاكر مطلق 111
- تحفة الملك العزيز بمملكة باريز.....
.....
د. مصطفى محمد العبداء لله 119
- رأي في المسألة التراثية.....
.....
د. محمد أحمد النابلسي 123
- الحفاية بتوضيح الكفاية للبيتوشي.....
.....
د. محسن اسماعيل محمود
طه صالح أمين آغا 132
- ابن كثير وكتابه التفسير.....
.....
محمود الأرناؤوط 150

□

الأضداد.. في اللغة العربية

نصر الدين البحرة

إذا رأينا أن وضع كتب الأضداد، يدخل في مجال التأليف المعجمي، فإنه اقترن تاريخياً بولادة هذا النوع من الكتابة. وقد "ولدت معجماتنا اللغوية صغيرة متفرقة غير منظمة، ثم نمت شيئاً فشيئاً، وتوسعت وتكاملت جيلاً بعد جيل" (١)

وعلى الرغم من أن الصينيين واليونان قد سبقوا العرب في وضع المعاجم ببضع مئات السنين، إلا أن العرب سبقوا أوروبا في هذا المضمار بأكثر من تسعة قرون ذاك أن تأليف أول معجم عربي يعود إلى القرن الثامن الميلادي، في حين يرجع تأليف أول معجم أوروبي إلى القرن السابع عشر، وهو معجم انكليزي (٢).

ولقد جمعت ألفاظ اللغة العربية ودونت ورتبت خلال ثلاث مراحل تاريخية، بدأت الأولى منها أواخر القرن الهجري الأول واستغرقت زهاء مئة سنة حتى أواخر القرن الثاني للهجرة. وفي هذه المرحلة جمعت الأحاديث الشريفة والقصائد الشعرية وبعض الأعمال النثرية. "وكان علماء اللغة يأخذون الألفاظ العربية من أفواه عرب الصحراء، أو الوافدين على الأمصار، ممن لم تتأثر ألسنتهم بمخالطة الأعاجم." (٣)

في المرحلة الأولى جمعت المفردات والألفاظ كلفياً دون ترتيب أو تنظيم "لأن الغاية كانت تتجه أولاً إلى الجمع والتدوين دون غيره، خوفاً على العربية من الغريب الدخيل" (٤) وعرفت المرحلة الثانية قدراً أكبر من التنظيم، كجمع الألفاظ التي تشترك في حرف واحد أو التي ترتبط برابطة الأضداد. وفي المرحلة الثالثة وضعت المعجمات الشاملة المنظمة، واعتمد مؤلفوها على ما كتب في المرحلتين السابقتين، فجمعوا وأضافوا ورتبوا ونسقوا.

وفي هذه الأثناء ظهرت كتب الأضداد وهي "التي جمعت ألفاظاً تأخذ معنيين متضادين، بحيث يمكن استخدام كل لفظة منها لمعنيين متنافرين، إذ أن كل لفظة تعني الشيء وضده" (٥)

وبين الذين وضعوا معجمات الأضداد: الأصمعي، والسجستاني، وابن السكيت وقطرب، وأبو الطيب اللغوي، وابن الدهان، والصغاني، وابن الأنباري. وقد قام المستشرق أوغست هفتر بتحقيق كتب الأضداد التالية:

- التداعي بالتشابه "فلان يشبه فلاناً".

- التداعي بالتضاد "أبيض أسود".

ولكن التضاد الهام جداً في اللغة العربية هو ذلك الذي يجعل المعنيين المختلفين - وأحياناً: عدة معانٍ - كامنين في قلب الكلمة الواحدة "فالجَوْنُ" تعني الأبيض والأسود. و "القَنَبِصُ" للصاصد والمصيد. و "الكُري" للمستأجر والمستأجر. و "الطرب" للفرح والحزن. وهذا ما يؤكد أن العقل العربي هو في طبيعته غير سكوني. بل هو جدلي Dialectical.

إن الدكتور عبد الكريم الياقي (١١) في دراسة فريدة له عن أبي تمام يستخرج من بعض شعره من الأضداد ما يحمله على القول إن التضاد هو أساس التفكير عنده.

ويرى أيضاً أن أبا تمام "يرى من خلال التضاد أن الحركة هي الأصل في حُسْن الطبيعة وجمال الأرض" وهو يذهب أبعد من ذلك فيقول:

" حين نطالع شعر أبي تمام نجد أنه قد سبق هيغل وأمثلة من الفلاسفة بعصور طويلة فشق طريق الديالكتيك المستند إلى صراع الأضداد، فهو في الحقيقة أبو الجدل الحديث".

ومن الأمثلة الموفقة التي يقدمها الدكتور الياقي في هذا المجال قول أبي تمام:

فصواب من مقلتي أن تصوبا

من سجايا الطول ألا تجيبا

تجد الذم سائلاً ومجيباً

فاسأئنها واجعل بكاك جواباً

وإذا كانت "الأضداد" توضح حركة الذهن العربي وجدليته، من خلال المفردات التي هي مادة التفكير، فإنها تؤكد من جانب آخر، في الوقت نفسه، مرونة هذا الذهن وقابليته للنقاش وسعة الرؤية اللغوية.

من أساليب التضاد

هنالك أكثر من أسلوب للنفي حسب حركة الذهن، فيمكن أن نقول مثلاً:

"طويل - وغير طويل أو - لا طويل" كذلك القول "قصير - غير قصير أو - لا قصير".

ومثل ذلك قولنا: "أسود - لا أسود أو - غير أسود" كذلك القول: "أبيض - غير أبيض أو - لا أبيض".

ولكن الطبيعي أن نقول "طويل وقصير" و "أسود وأبيض" مثلما نقول "حركة وسكون" و "ظلام وضياء" وهناك معجمات كثيرة اهتمت بهذه الأضداد في بعض فصولها، هي معجمات المعاني مثل "فقه اللغة" للتعاليبي و "تهذيب الألفاظ" لابن السكيت و "الألفاظ الكتابية" (١٢) للهمذاني. وفيه فصل عنوانه "باب الأضداد" منه "الفرح والغم. اليسار والفقير. المدح والتثب. الدنو والبعد. الإظهار والكتمان.. إلخ".

.. إلا أن ما يعيننا هنا هو اجتماع المعنيين أو أكثر في لفظ واحد، وهذا ما اهتمت به معجمات الأضداد، وبينها كتاب ابن الأنباري الذي نحن في صدد الحديث عنه.

في تعريف الأضداد

ورد في لسان العرب أن الضد هو كل شيء ضاداً شيئاً ليغلبه. وورد التعريف نفسه في "تاج العروس" للزبيدي (١٣) وأضاف: "السواد ضد البياض، والموت ضد الحياة: قال الليث. ويقال: لقي القوم أضدادهم وأندادهم أي: أقرانهم. وقال الأخفش: الند هو الضد والشبه. وقال ابن السكيت: حكى لنا أبو عمرو: الضد مثل الشيء. وال ضد: خلافه.

وجاء في "المصباح المنير" (١٤): الضد هو النظير والكفاء. والجمع أضداد. وال ضد خلافه. و (ضادّه) (مضادة) إذا باينه مخالفة و (المتضادان) اللذان لا يجتمعان كالليل والنهار. وأشار الشرتوني في "أقرب الموارد" (١٥) إلى ما دعاه "لغات الأضداد": اللغات الدالة على معنيين متضادين كالضد للمثل والمخالف.

كتاب ابن الأنباري

هناك إجماع بين الباحثين على أن كتاب "الأضداد" في اللغة لابن الأنباري هو واحد من أهم كتب الأضداد المطبوعة في اللغة العربية، وقد جمع فيه مئتين وثلاثاً وتسعين لفظاً من ألفاظ الأضداد. وهناك من يقول إنها ثلاثمئة (١٦).

وهو يستهل كتابه بتبيان الغرض من تأليفه قائلاً: "وقد جمع قوم من أهل اللغة الحروف -يعني: الكلمات- المتضادة. صنفوا في إحصائها كتباً نظرت فيها فوجدت كل واحد منهم أتى من الحروف - الكلمات- بجزء، وأسقط منها جزءاً. وأكثرهم أمسك عن الاعتلال لها، فرأيت أن أجمعها في كتابنا هذا، على حسب معرفتي ومبلغ عملي، ليستغني كاتبه والناظر فيه عن الكتب القديمة المؤلفة في مثل معناه" (١٧).

وكان قبل ذلك، قد عرض وجهة النظر التي تعارض فكرة الأضداد أي أن "يكون الحرف - الكلمة- مؤدياً عن معنيين مختلفين. ويظن أهل البدع والزيغ والإزراء بالعرب أن ذلك كان منهم لنقصان حكمتهم وقلة بلاغتهم، وكثرة الالتباس في محاوراتهم عند اتصال مخاطباتهم، فيسألون عن ذلك ويحتجون بأن الاسم منبئ عن المعنى الذي تحته، ودال عليه، وموضح تأويله.

فاذا اعتور اللفظة الواحدة معنيان مختلفان، لم يعرف المخاطب أيهما أراد المخاطب، وبطل بذلك تعليق الاسم على المسمى (١٨).

ويرد ابن الأنباري على هذا الاعتراض الذي تضمن وجهة نظره في قائله، وهو لا بد أن يكون من الشعوبيين (١٩) "أهل البدع والزيغ والإزراء بالعرب" فيقول:

"فأجيبوا عن هذا الذي ظنوه وسألوا عنه، بضروب من الأجوبة، أحدهن أن كلام العرب يصح بعضه بعضاً، ويرتبط أوله بآخره، ولا يعرف معنى الخطاب منه إلا باستيفائه واستكمال جميع حروفه، فجاز وقوع اللفظة على المعنيين المتضادين لأنها يتقدمها ويأتي بعدها ما يدل على خصوصية أحد المعنيين دون الآخر، ولا يراد بها في حال التكلم والإخبار إلا معنى واحد فمن ذلك قول الشاعر:

كل شيء ما خلا الموت جَلَلٌ والفتى يسعى، ويلهيه الأمل

فدل ما تقدم قبل "جلل" وتأخر بعده على أن معناه: "كل شيء ما خلا الموت يسير" ولا يتوهم ذو عقل وتمييز أن الجلل هنا معناه عظيم. ويقدم ابن الأنباري مثالا آخر:

فلئن عفوت لأعفون جَللاً ولئن سطوت لأوهن عظمي

قومي هم قتلوا أميم أخي فإذا رميت، يصيبني سهمي.

ثم يتابع شارحاً: فدل الكلام على أنه أراد "فلئن عفوت لأعفون عفواً عظيماً، لأن الإنسان لا يفخر بصفحه عن ذنب يسير" فلما كان اللبس في هذين زائلاً عن جميع السامعين، لم يُنكر وقوع الكلمة على معنيين مختلفين في كلامين مختلفي اللفظ" (٢٠).

خطة ابن الأنباري في "الأضداد"

١- لم يرتب كتابه حين وضعه ترتيباً أبجدياً، كما جرت العادة في وضع المعجمات. ولذلك فإنه بدأ بحرف هو السابع عشر في الأبجدية العربية هو "الطاء" في كلمة "الظن" التي استغرق شرحها زهاء خمس صفحات. في حين نجد حرفي "الألف" و "الجيم" في الصفحات الأخيرة من الكتاب، ورقمهما هو "٣٠٨" و "٣٠٩". وعدد صفحات الكتاب "المطبوع" هو ثلاثمئة وخمس وسبعون ورقة.

٢- لم يميز ابن الأنباري في عرض مفرداته وشرحها بين فعل وبين اسم وبين حرف. كان يقدمها ويتحدث عنها كيفياً على هواه، منتقلاً من الحروف إلى الأسماء فالأفعال دون حرج. ففي صفتين متتاليتين في الكتاب تحدث عن هذه الكلمات:

- "مُشِبّ" - اسم: للمسّن وللشباب.

- "أعبل" - فعل: إذا سقط ورقه. وإذا أخرج ثمرته.

- "طلعت" - فعل: على الرجل: أقبلت عليه. وأدبرت عنه (٢١).

٣- يعتمد الإسهاب في الشرح، باستمرار، وربما لا تدعو الحاجة إلى ذلك. انظر إلى هذا الإسهاب: في حديثه عن "أشدّ" يقول: "بلغ فلان أشده إذا بلغ ثماني عشرة سنة. وبلغ أشده إذا بلغ أربعين سنة. قال الله تعالى: "حتى إذا بلغ أشده وبلغ أربعين سنة". قال الفراء: ويقال الأشد أربعون سنة. قال وحكى لي بعض المشيخة بإسناد ذكره أن الأشد ثلاث وثلاثون سنة، والاستواء أربعون سنة.

سنة (٢٢) .. إلخ ..

٤- **يميل إلى الاستطراء** كلما سئمت أمامه فرصة لذلك، ولا غرابة ما دام قد ولد بعد وفاة سيد الاستطراء وظريفه الجاحظ بعشرين سنة تقريباً: "الجاحظ: ١٦٣ - ٢٥٥ هـ. ابن الأنباري: ٢٧١ - ٣٢٨ هـ" فلا بد أنه قرأه جيداً، وتأثر بأسلوبه في الكتابة. فلننظر ماذا فعل وهو في صدد كلمة "وثب". "يقال: وثب الرجل إذا نهض وطف من موضع إلى موضع. وحمير تقول: وثب الرجل إذا قعد. وقال الأصمعي وغيره: دخل رجل على ملك من ملوك حمير، وكان الملك جالساً في موضع مشرف، فارتقى إليه، فقال الملك: ثب! يريد: اجلس. فطفر فسقط فاندقت عنقه. فقال الملك: من دخل "ظفار" "حمّر" أي: تكلم بلسان حمير. وقال بعضهم: معنى "حمّر" تزياً بزبيهم، ولبس الحمّر من الثياب. و "ظفار" اسم مدينة باليمن، ينسب إليها الجزع الظفاري. و "ظفار" كسرت لأنها أجريت مجرى ما سمي بالأمر كقولك: قطام وحدام لأنهما على مثال: قول ونظار. ومن ذلك: حلاق من أسماء المنية، وطمار اسم جبل (٢٣).

٥- **يقدم الحكاية مع الشاهد**، بين وقت وبين آخر، خلال شرحه مفرداته في الأضداد. مثال ذلك ما كان وهو يتحدث عن لفظة "الحن" فبعد أن بين أنها تقال للخطأ وللصواب، وبين وجوهاً وشواهد في ذلك، قال، مورداً حكاية:

"خبرنا الأصمعي عن عيسى بن عمر قال، قال معاوية للناس: كيف ابن زياد فيكم. قالوا: ظريف على أنه يلحن، قال: فذاك أظرف له. ذهب معاوية إلى أن معنى يلحن: يظن ويصيب (٢٤). وثمة حكاية مثلها -والحكايات كثيرة- رواها بعد العننة. قال: كتب معاوية إلى زياد كتاباً، وقال للرسول: إنك ستري إلى جانبه رجلاً، فقل له: إن أمير المؤمنين يقول لك قد شككت في قولك:

**فإن يك حبهم رشداً أصبه
 وليس بمخطئ إن كان غياً**

والرجل المقصود هو: أبو الأسود، القائل:

**يقول الأرنؤون بنو قشير
 طوال الدهر ما تنسى علياً**

**بنو عم النبي وأقربوه
 أحب الناس كلهم إلياً**

**فإن يك حبهم رشداً أصبه
 وليس بمخطئ إن كان غياً**

فقال (الرسول) لأبي الأسود ما قال معاوية. فقال: قل له لا علم لك بالعربية، قال الله عز وجل: "وإننا أو إياكم لعلى هدى أو في ضلال مبين" أفترى ربنا شك. فسكت معاوية لما بلغه احتجاج أبي الأسود (٢٥).

وكان ابن الأنباري يتحدث عن "جبر"، فهي: للملك والعبد، مستشهداً بقول ابن الأحمر:
**فاسلم براووق حبيت به
 وانعم صباحاً أيها الجبر.**

فإذا هو يستطرد إلى حديث آخر. قال:

"أراد أيها الملك. وقولهم: جبرئيل. معناه: عبد الله. فالجبر العبد، و"الإيل" و"الإل" الربوبية. وكان ابن يعمر يقرأ "جَبْرَ إِل" بتشديد اللام. وقال بعض المفسرين "الإل" هو الله جل اسمه. واحتج بقول الله جل وعز "لا يرقبون في مؤمن إلا ولا ذمة" قال: معناه لا يرقبون الله ولا ذمته. ويحكى عن أبي بكر الصديق رضي الله عنه أن المسلمين لما قدموا عليه، من قتال مسيلمة استقرأهم بعض قرآنه فلما قرئ عليه عجب وقال: إن هذا الكلام لم يخرج من إله أي: من ربوبية. ويقال: الإل القرابة والذمة والعهد (٢٦)... إلخ"

ثم لا ينتهي هذا الاستطراد، ذلك أننا نقرأ بعد قليل: "وقال بعض المفسرين: جبرئيل معناه: عبد الله. وميكائيل معناه: عبد الله. واسرافيل معناه: عبد الرحمن. وكل اسم فيه إيل فهو معبد لله عز وجل (٢٧)".

٦- كان يلجأ إلى تأويل معاني الأضداد في ضوء الآيات القرآنية والحديث الشريف، من ذلك كلمة: "الأمة" فتقال للواحد الصالح الذي يؤتم به ويكون علماً في الخير، كقوله عز وجل: "إن إبراهيم كان أمة فانتأ الله حنيفاً" ويقال: الأمة للجماعة، كقوله عز وجل "وجد عليه أمة من الناس يسقون" ويقال: الأمة أيضاً للواحد المنفرد بالدين. قال سعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل، قلت: يا رسول الله، إن أبي قد كان على ما رأيت وبلغك، أفلا أستغفر له. قال: بلى، يُبعث يوم القيامة أمة وحده. ويفسر هذا الحرف -الكلمة- من كتاب الله تعالى تفسيرين متضادين، وهو قوله جل وعز: "كان الناس أمة واحدة فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين" فيقول بعض المفسرين: معناه كان الناس مؤمنين كلهم. ويقول غيره معناه: كان الناس كفاراً كلهم. فالذين قالوا: الأمة ههنا المؤمنون، ذهبوا إلى أن الله عز وجل، لما غرق الكافرين من قوم نوح بالطوفان، ونجى نوحاً والمؤمنين، كان الناس كلهم في ذلك الوقت مؤمنين، ثم كفر بعضهم بعد الوقت، فأرسل الله إليهم أنبياء يبشرون وينذرون ويدلونهم على ما يسعدون به ويتوفر منه حظهم. ومن قال: الأمة في الآية معناها الكافرون، قال: تأويل الآية: كان الناس قبل إرسال الله نوحاً كافرين كلهم، فأرسل الله نوحاً وغيره من النبيين والمبعوثين بعده يبشرون وينذرون، ويدلون الناس على ما يتدينون به، مما لا يقبل الله تعالى يقوم القيامة غيره. والله أعلم بحقيقة القولين وأحكام (٢٨)"

وفي مثل هذا يقدم تفسيرين متضادين لقوله تعالى "والعاديات صباحاً" يقول بعضهم: العاديات الخيل. والضح صوت أنفاس الخيل إذا عدون. يقال: قد ضبح الفرس وقد ضبح الثعلب، وكذلك ما أشبههما. ويقال: العاديات الإبل. وضبحاً معناه ضبعاً، فأبدلت الحاء من العين. كما تقول العرب: بُعثر ما في القبور وبحتر ما في القبور، فمن قال: العاديات الخيل، قال: هي الموريات قدحاً، لأنها توري الناس بسنابكها إذا وقعت على الحجارة، وهي المغيرات صباحاً، ومن قال: العاديات الإبل، قال: الموريات قدحاً الرجال، يتبين من رأيهم ومكرهم ما يشبه النار التي توري في القدح. والمغيرات صباحاً: الإبل يذهب إلى أنها تعدو في بعض أوقات الحج. ثم يقدم ابن الأنباري خبراً عن

مجادلة كانت بين ابن عباس (ر) والإمام علي كرم الله وجهه، حول هذين التفسيرين. وقد قال الإمام علي: إن كانت أول غزوة في الإسلام ليدر، وما كان معنا إلا فرسان، فرس للزبير، وفرس للمقداد، فكيف تكون العاديات الخيل؟! إنما العاديات ضبحاً من "عرفة" إلى "المزدلفة" ومن "المزدلفة" إلى "منى" فإذا كان الغد فالمغيرات صبحاً إلى "منى" فذلك جمع. فأما قوله: فأثرن به نقعاً، فهو نقع الأرض حين تطؤه بأخفافها. قال ابن عباس، فنزعت عن قولي ورجعت إلى قول علي رضي الله عنه (٢٩):

٧- تبدو النزعة العربية واضحة لدى ابن الأنباري، بين موضع وبين آخر في الكتاب. فهو يمر بأسماء يعرفها كثيرون على أنها أعجمية، يرى وجهاً لعروبته، لكنه يتحفظ قائلاً "لا قياس". من ذلك مثلاً اسم "يعقوب".

يقول ابن الأنباري: يكون عربياً لأن العرب تسمي ذكر الحجل يعقوباً ويجمعونه: يعاقيب. قال سلامة بن جندل:

أودى الشبابُ حميداً ذو التعاجيب أودى وذلك شأو غير مطلوب
ولى حثيثاً وهذا الشيب يطلبه لو كان يدركه، ركضَ اليعاقيب

وهناك اسم "اسحاق" وقوله فيه: يكون أعجمياً مجهول الاشتقاق، فيمنع الإجراء في باب المعرفة بتقل التعريف والعجمة. ويكون عربياً من أسحقه الله إسحاقاً أي أبعداه إيعاداً، من ذلك قوله جل اسمه: "فسحقاً لأصحاب السعير" أي: بعداً لهم.

ومثل ذلك اسم "أيوب" وفيه يقول ابن الأنباري: يكون أعجمياً مجهول الاشتقاق، ويكون عربياً مجزئاً في حال التعريف والتنكير، لأنه يجري مجرى "قيوم" من: قام يقوم. ويكون فيعولاً من "آب- يؤوب" إذا رجع.

قال عبيد بن الأبرص:

وكل ذي غيبة يؤوب وغائب الموت لا يؤوب

ويتمهل ليتحفظ مع أبي بكر الذي قال: ولا يفاص على هذه الأسماء الثلاثة، أعني: اسحاق ويعقوب وأيوب، غيرها من الأسماء الأعجمية مثل إدريس وغيره، لأنه لم يسمع من العرب إجراء سوى هؤلاء الثلاثة في باب المعرفة. و محال أن يعمل من هذا بالقياس ما تنكبه العرب ولا تعرفه (٣٠).

الألفاظ والمعاني: النقائض والمترادفات

يتوقف ابن الأنباري ملياً في مقدمة كتابه، أمام ما يمكن أن ندعوه: الأضداد أو النقائض، والمترادفات، فيقول إن أكثر كلام العرب يأتي على ضربين آخرين، أحدهما أن يقع اللفظان المختلفان

على المعنيين المختلفين كقولك: الرجل والمرأة، والجمل والناقة، واليوم واللييلة، وقام وقعد، وتكلم وسكت. وهذا هو الكثير الذي لا يُحاط به. والضرب الآخر، أن يقع اللفظان المختلفان على المعنى الواحد، كقولك: البرّ والحنطة. والعير والحمار، والذئب والسيد، وجلس وقعد. وذهب ومضى.

ويرفض ابن الأنباري أن يعد هذه الألفاظ مترادفات، كما درج بعضهم على ذلك. محتجاً برأي ابن الأعرابي نقلاً عما قاله أبو العباس: كل حرفين أوقعتهما العرب على معنى واحد، في كل واحد منهما معنى ليس في صاحبه، ربما عرفناه فأخبرنا به. وربما غمض علينا فلم نلزم العرب جهله. ويؤكد ربط الأسماء بالمعاني في هذا الحديث، نقلاً عن الرجل نفسه: الأسماء كلها لعلّة خست العرب ما خصصت منها من العلل ما نعلمه منها وما نجعله.

ثم يتابع عن ابن الأعرابي، مسنداً الكلام إلى أبي بكر، أن مكة سميت مكة لجذب الناس إليها. والبصرة سميت البصرة للحجارة البيض الرخوة بها - والكوفة سميت الكوفة لازدحام الناس بها من قولهم: قد تكوّف الرمل تكوفاً إذا ركب بعضه بعضاً. والإنسان سمي إنساناً لنسيانه. والبهيمة سميت بهيمة لأنها أبهمت عن العقل والتمييز من قولهم: أمر مبهم، إذا كان لا يعرف بابيه. ويقال للشجاع: بهمة لأن مقاتله لا يدري من أي وجه يوقع الحيلة عليه. فإن قال لنا قائل: لأي علة سمي الرجل رجلاً، والمرأة امرأة، والموصل الموصل، ودعد دعداً. قلنا لعل علمتها العرب وجهلناها أو بعضها (٣١).

الاتساع في الكلام

وفي معرض تأويله ارتباط الأسماء بالمعاني، يطرح فكرة أخرى لسنا ندرّج إلى أي درجة كانت جديدة في زمان ابن الأنباري هي "الاتساع في الكلام": وهنا ينقل عن قطرب قوله: "إنما أوقعت العرب اللفظتين على المعنى الواحد ليدلوا على اتساعهم في كلامهم، كما زاحفوا في أجزاء الشعر ليدلوا على أن الكلام واسع عندهم، وأن مذاهبه لا تضيق عليهم عند الخطاب والإطالة والإطناب. ثم ينوع ابن الأنباري على هذا اللحن، ناسباً الكلام إلى آخرين قالوا: إذا وقع الحرف - الكلمة - على معنيين متضادين، فالأصل لمعنى واحد، ثم تداخل الاثنان على جهة الاتساع. فمن ذلك: الصّريم. يقال لليل: صريم وللنهار صريم. لأن الليل ينصرم من النهار، والنهار ينصرم من الليل، فأصل المعنيين من باب واحد وهو القطع. وكذلك: الصارخ المغيث. والصارخ المستغيث. سميا بذلك لأن المغيث يصرخ بالإغاثة والمستغيث يصرخ بالاستغاثة، فأصلهما من باب واحد. وكذلك: السُدفة، الظلمة والسُدفة، الضوء. سمياً بذلك لأن أصل السدفة الستر، فكأن النهار إذا أقبل ستر ضوءه ظلما الليل، وكان الليل إذا أقبل سترت ظلّمته ضوء النهار (٣٢).

المعاني بين أحياء العرب

وفي تقليبه الرأي حول المعنيين المتضادين لكلمة واحدة ينتهي ابن الأنباري إلى القول: إذا وقع الحرف - الكلمة - على معنيين متضادين، فمحال أن يكون العربي أوقعه عليهما بمساواة منه بينهما، ولكن أحد المعنيين لحي من العرب، والآخر لحي غيره، ثم سمع بعضهم لغة بعض، فأخذ هؤلاء عن

هؤلاء، وهؤلاء عن هؤلاء. قالوا: فالجَوْنُ، الأبيض في لغة حي من العرب. والجَوْنُ، الأسود في لغة حي آخر، ثم أخذ أحد الفريقين من الآخر (٣٣).

ثم ينتقل إلى بحث في عين الفعل في الإطار نفسه.

التفاسير المتضادة: ذو القرنين

ويرى ابن الأنباري أن الأضداد يمكن أن تتضمن "التفاسير المتضادة" أيضاً، مما لا علاقة مباشرة له بالألفاظ. من ذلك مثلاً قوله تعالى "ويسألونك عن ذي القرنين". وفي شرحه ذلك يعرض حكاية: أن خالد بن معدان قال سمع عمر رحمه الله رجلاً يقول لرجل يا ذا القرنين. فقال: أما ترضون أن تسموا بأسماء الأنبياء حتى صرتم تسمون بأسماء الملائكة.

التفسير الثاني بعد العنينة ينقله عن مجاهد. قال: ملك الأرض شرقها وغربها أربعة، مؤمنان وكافران. فأما المؤمنان فسلیمان بن داود وذو القرنين. وأما الكافران فالذي حاج إبراهيم في ربه، يعني: نمرود وبخت نصر.

والتفسير الثالث ينسبه إلى الإمام علي بن أبي طالب رضي الله عنه: قام إليه رجل فقال: يا أمير المؤمنين، أخبرني عن ذي القرنين أنبياً كان أم ملكاً؟

فقال: ليس بنبي ولا ملك، ولكنه عبد صالح أحب الله فأحبه، وناصح الله فناصحه. بعثه الله عز وجل إلى قومه فضربوه على قرنه الأيمن فمات. ثم أحياه الله فدعاهم، فضربوه على قرنه الأيسر فمات وفيكم مثله. وقال الحسن: إنما سمّي ذو القرنين ذا القرنين لأنه كان في رأسه ضفيرتان من شعر يطاء فيهما. قال ليبيد بن ربيعة:

والصعب ذو القرنين أصبح ثاويًا **بالحنو في جدث، أميم، مقيم**

وذو القرنين هذا، قال، النعمان بن المنذر، لأنه كانت في رأسه ضفيرتا شعر.

أما التفسير الرابع فقد ذكره ابن شهاب الزهري الذي قال: سمي ذا القرنين لأنه بلغ قرن الشمس من مشرقها، وقرنها من مغربها. وقال وهب ابن منبه: سمي ذا القرنين لأنه ملك فارس والروم (٣٤).

الألفاظ والمعاني: وزن فعول

وينقل ابن الأنباري هذا الوجه عن قطرب؛ يقال: ركوب للرجل الذي يركب. وركوب للطريق الذي يركب. وأنشد

يدعن صوان الحصى ركوباً

أي مركوباً. وأنشد لأوس بن حجر

تضمنها وهم ركوب كانه

إذا ضم جنبه المخارم رزق

الرزق الصف من الناس، وأصله أعجمي.

وعلى هذا المنوال يتابع حديثه على وزن "فعل" قائلاً: وكذلك (الفجوع) يكون الفاجع والمفجوع. ومثل ذلك "ذُعمور": تحتمل تأويلين أحدهما، ذعرت رجلاً مذعوراً. والتأويل الآخر، ذعرت رجلاً يذعر الناس.

وكذلك (الزجور) يقال للزاجر وللناقة التي لا تدر حتى تزجر.. و (الرغوث) و (النهوز)(٣٥).. إلخ.

الألفاظ والمعاني: التصغير.

يقول ابن الأنباري إن التصغير من الأضداد، لأنه "يدخل لمعنى التحقير ولمعنى التعظيم. فمن التعظيم قول العرب: أنا سُرَيْسِيرٌ هذا الأمر. أي أنا أعلم الناس به. ومنه قول الأنصاري يوم السقيفة: أنا جُدَيْلُهَا الْمُحَكَّكُ، وعُدَيْقُهَا الْمُرَجَّبُ. أي أنا أعلم الناس بها، فالمراد من هذا التصغير التعظيم لا التحقير. والجُدَيْلُ تصغير الجذل وهو الجذع وأصل الشجرة. والمُحَكَّكُ الذي يُحَتَّكُ به. أراد: أن يُسْتَفَى برأبي كما تستفي الإبل أولات الجرب باحتكاكها بالجذع. والعُدَيْقُ تصغير العذق، وهو الكباسة والشمراخ العظيم. والمُرَجَّبُ الذي يُعَمَدُ لعظمه. وقال لبيد في هذا المعنى:

وكل أناس سوف تدخل بينهم دويهة تصفر منها الأنامل

فصغرَّ الداهية معظماً لها، لا محقراً لشأنها.

وبحث... في التصغير

ثم يدخل ابن الأنباري في بحث نحوي في التصغير فيرى أنه على ثمانية أوجه.. إلا أن ما يهمنا منها هنا:

- تصغير العين لنقصان فيها كقولك: هذا حُجَيْرٌ، إذا كان صغيراً. وكذلك: هذه دويرة إذا لم تكن كبيرة واسعة.

- ويكون التصغير على جهة تحقير المصغر في عين المخاطب وليس به نقص في ذاته ولا صغر كقول القائل: ذهبت الدنانير فما بقي منها إلا دُنَيْنِيرٌ واحد. وكذلك: هلك القوم، فما بقي إلا أهل بُيُوت

- ويكون التصغير على معنى الذم كقولهم: يا فُؤَيْسِقُ، يا حُبَيْثُ.

- ويكون التصغير على معنى الرحمة والإشفاق والعطف كقولهم للرجل: يا بنيّ ويا أُخِيّ وللمرأة يا أُخِيَّةَ (٣٦).

أمثلة أخرى من الأضداد: الأفعال

يرجع ابن الأنباري في فعل "يهوي" إلى "قطرب" لإثبات أنه من الأضداد، فيقول: يكون بمعنى يصعد، ويكون بمعنى ينزل، وأنشد
 والدلو تهوي كالعقاب الكاسر

تفسير الآية يقول: إنهم اعتذروا بغير عذر صحيح. ويقال أيضاً: قد عذر الرجل في الحاجة، إذا قصر فيها. وقد أعذر إذا بالغ ولم يقصر. من ذلك قولهم: قد أعذر من أنذر أي قد جاء بمحض العذر (٤١).

أضداد من الأسماء

"اللحن" يقال للخطأ، ويقال للصواب. يقول ابن الأنباري: فأما كون اللحن على معنى الخطأ، فلا يحتاج فيه إلى شاهد. وأما كونه على معنى الصواب، فشاهده قول الله عز وجل "لتعرفنهم في لحن القول" معناه في صواب القول وصحته (٤٢).. إلخ.

و "المستخفي" يكون الظاهر ويكون المتواري. فإذا كان المتواري فهو من قولهم: قد استخفي الرجل، إذا توارى. وإذا كان الظاهر فهو من قولهم: خفيت الشيء، إذا أظهرته. من ذلك الحديث المروي: ليس على المختفي قطع. معناه: ليس على النبأش. وإنما سمى النبأش مختفياً لأنه يخرج الموتى ويظهر أكفانهم (٤٣).

و "بعض" يكون بمعنى بعض الشيء وبمعنى كله. قال بعض أهل اللغة، في قول الله عز وجل حاكياً عن عيسى عليه السلام "ولأبين لكم بعض الذي تختلفون فيه" معناه: كل الذي تختلفون فيه. واحتج بقول لبيد:

تُرَاكُ أَمَكْنَةَ إِذَا لَمْ أَرْضَهَا أَوْ يَعْتَلِقُ بَعْضَ النَّفُوسِ حِمَامَهَا

معناه: أو يعتلق كل النفوس، لأنه لا يسلم من الحمام أحد، والحمام هو القدر.

ويتابع ابن الأنباري قائلاً: وقال غيره: بعض ليس من الأضداد ولا يقع على الكل أبداً. وقال في قوله عز وجل: ولأبين لكم بعض الذي تختلفون فيه: ما أحضر من اختلافكم، لأن الذي أغيب عنه لا أعلمه، فوقعت (بعض) في الآية على الوجه الظاهر فيها. وقال في قول لبيد: "أو يعتلق بعض النفوس حِمَامَهَا": أو يعتلق نفسي حِمَامَهَا، لأن نفسي هي بعض النفوس.

و "حَرْفٌ" من أسماء الأضداد، يقال للرجل القصير حرف، ويقال للناقة العظيمة حرف. وقال بعض البصريين: يقال للناقة الصغيرة حرف، وللعظيمة حرف. وإنما قيل للعظيمة حرف لشدتها وصلابتها شبهت بحرف الجبل. ويقال: بل قيل لها ذلك لسرعتها شبهت بحرف السيف في مضائه. قال الشاعر:

وَإِذَا خَلِيكَ لَمْ يَدِمْ لَكَ وَصَلَهُ فَاقْطِعْ لُبَانَتَهُ بِحَرْفِ ضَامِرٍ (٤٥)

أضداد.. من الحروف

قليلة جداً حروف الأضداد في كتاب ابن الأنباري، إذا قيست بالأسماء خاصة، وبالأفعال عامة. ومنها:

لا: ويكون هذا الحرف بمعنى الجحد وهو الأشهر فيها، ويكون بمعنى الإثبات وهو المستغرب

عند عوام الناس منها. فكونها بمعنى الجحد لا يُحتاج فيه إلى شاهد. وكونها بمعنى الإثبات، شاهده قول الله عز وجل "وحرام على قرية أهلكناها أنهم لا يرجعون" معناه أنهم يرجعون. وكذلك قوله عز وجل "ما منعك ألا تسجد" معناه أن تسجد، فدخلت "لا" للتوكيد.

ويستطرد ابن الأنباري إلى أربعة أوجه نحوية في "لا" (٤٦)

"ما" تكون اسماً للشئ، وتكون جحداً له، وتكون مزيدة للتوكيد، فيقول القائل: "طعامك ما أكلت" وهو يريد: طعامك الذي أكلته. فتكون "ما" اسماً للطعام. وتقول: "طعامك ما أكلت" وهو يريد طعامك أكلت، فيؤكد الكلام بـ "ما".

وتقول أيضاً "عبد الله ما قام" على جحد القيام. و "عبد الله ما قام" على إثباته، و "ما" زيدت للتوكيد. فكون "ما" جحداً لا يحتاج فيه إلى شاهد، لشهرته وبيانه. وكونها اسماً شاهده قول الله عز وجل "ما عندكم ينفد وما عند الله باق". وكونها مزيدة للتوكيد شاهده قول الله عز وجل "مما خطاياهم أغرقوا" معناه: من خطاياهم. وقوله أيضاً "فبما نقضهم ميثاقهم فمناقضهم" (٤٧).

"هل" تكون استفهاماً، وتكون للتحقيق بمعنى "قد". يقول ابن الأنباري: تكون استفهاماً عن ما جهله الإنسان ولا يعلمه، فيقول: هل قام عبد الله؟ ملتصقاً للعلم وزوال الشك. وتكون "هل" بمعنى "قد" في حال العلم واليقين وزوال الشك. فأما كونها على الاستفهام، فلا يحتاج فيه إلى شاهد. وأما كونها على معنى "قد" فشاهده قول الله عز وجل: "هل أتى على الإنسان حين من الدهر" قال جماعة من أهل العلم، معناه: قد أتى على الإنسان..

ثم يستشهد بالحديث الشريف: قال النبي (ص) في بعض غزواته: "اللهم هل بلغت" قد بلغت. وقال بعض أهل اللغة إذا دخلت "هل" للشئ المعلوم فمعناها الإيجاب والتأويل (٤٨).



■ الحواشي:

كان يحفظ ثلاثمائة ألف شاهد في القرآن. ولد في "الأنبار" على الفرات وتوفي ببغداد. وكان يتردد إلى أولاد الخليفة الراضي بالله يعلمهم. من كتبه (الزاهر) في اللغة و (شرح القصائد السبع الطوال الجاهليات) و (إيضاح الوقف والابتداء في كتاب الله عز وجل) و (الهاءات) و (عجائب علوم القرآن) و (شرح الألفات) -رسالة نشرت في مجلة المجمع بدمشق. و (خلق الإنسان) و (الأمثال) و (الأضداد) وأجل كتبه في رأي الزركلي- (غريب الحديث) قيل إنه خمسة وأربعون ألف ورقة. وله (الأمالي) عن "الأعلام" لخير الدين الزركلي -الطبعة

- ١- اللغة ومعجمها في المكتبة العربية. تأليف: د. عبد اللطيف الصوفي- دار طلاس- ١٩٨٦- ص ٣٤.
- ٢- المصدر السابق-ص ٣٥
- ٣- المصدر السابق - ص ٣٧
- ٤- المصدر نفسه - ص ٣٨
- ٥- المصدر نفسه - ص ٦٧
- ٦- المصدر نفسه- ص ٦٨
- ٧- ابن الأنباري (٢٧١ - ٣٢٨هـ = ٨٨٤ - ٩٤٠م): محمد بن القاسم بن محمد بن بشار، أبو بكر الأنباري، من أعلم أهل زمانه في الأدب واللغة، ومن أكثر الناس حفظاً للشعر والأخبار. قيل:

التراث العربي

نصر الدين البحرّة

- الخامسة ١٩٨٠ دار العلم للملايين - المجلد السادس - ص ٣٣٤
- ٨- الأضداد في اللغة. تأليف: تاج اللغة محمد بن القاسم محمد بن بشار الأنباري النحوي- المطبعة الحسينية المصرية بكفر الطماعين بمصر- أواخر شهر شعبان ١٣٢٥ هجرية.
- ٩- دار الحدائق - لبنان- بيروت- الطبعة الثانية ١٩٨٢
- ١٠- المصدر السابق - ص ٨
- ١١- دراسات فنية في الأدب العربي- تأليف: د. عبد الكريم اليافي- طبعة ١٩٧٢- ص ١١٠ وما بعد
- ١٢- الألفاظ الكتابية - تأليف: عبد الرحمن عيسى الهمذاني- مطبعة الآباء اليسوعيين في بيروت ١٨٩٩- الطبعة الثامنة- ص ٢٩٦
- ١٣- تاج العروس من جواهر القاموس للسيد محمد مرتضى الحسيني الزبيدي- تحقيق الدكتور عبد العزيز مطر- مطبعة حكومة الكويت- ١٩٧٠
- الجزء الثامن- ص ٣١٠
- ١٤- المصباح المنير - تأليف: أحمد محمد بن علي الفيومي المقرئ- المكتبة العصرية- صيدا- الطبعة الثانية ١٩٩٧- ص ١٨٦
- ١٥- أقرب الموارد في فصح العربية والشوارد - تأليف: سعيد الخوري الشرتوني- مطبعة مرسلتي اليسوعية ببيروت سنة ١٨٨٩ ص ٦٧٩
- ١٦- اللغة ومعاجمها - تأليف: عبد اللطيف الصوفي- ص ٧١
- ١٧- الأضداد في اللغة. تأليف: ابن الأنباري- ص ١١
- ١٨- الأضداد- ص ٢
- ١٩- ابن درستويه (ت ٣٤٧هـ) ألف كتاباً في إبطال الأضداد: اللغة ومعاجمها.
- ٢٠- الأضداد في اللغة- لابن الأنباري- ص ٢، ٣، ٤
- ٢١- الأضداد في اللغة- ص ٣٥٠، ٣٥١
- ٢٢- المرجع السابق- ص ١٩٢، ١٩٣
- ٢٣- المرجع السابق- ص ٧٧
- ٢٤- المرجع السابق- ص ٢٠٨
- ٢٥- المرجع نفسه- ص ٢٤٤
- ٢٦- المرجع نفسه- ص ٣٤٦
- ٢٧- المرجع نفسه- ص ٣٤٧
- ٢٨- الأضداد في اللغة- لابن الأنباري - ص ٢٣٥- ٢٣٦
- ٢٩- المرجع السابق، ص ٣١٨، ٣١٩، ٣٢٠
- ٣٠- المرجع السابق- ص ٣٦٤- ٣٦٥
- ٣١- المرجع السابق- ص ٦- ٧
- ٣٢- المرجع السابق- ص ٨- ٧
- ٣٣- المرجع نفسه- ص ١٠
- ٣٤- الأضداد في اللغة. تأليف: ابن الأنباري- ص ٣٠٩، ٣١٠
- ٣٥- المرجع السابق- ص ٣١٢
- ٣٦- المرجع السابق- ص ٢٥٤، ٢٥٥
- ٣٧- المرجع السابق- ص ٣٣٢
- ٣٨- المرجع السابق- ص ٨٠
- ٣٩- المرجع نفسه- ص ١٥٠، ١٥١
- ٤٠- المرجع نفسه- ص ٢٠٥، ٢٠٦
- ٤١- المرجع نفسه- ص ٢٨٠
- ٤٢- المرجع نفسه- ص ٢٠٧
- ٤٣- المرجع نفسه- ص ٦٣
- ٤٤- الأضداد في اللغة- ابن الأنباري- ص ١٥٥- ١٥٦
- ٤٥- المرجع السابق- ص ١٧٣
- ٤٦- المرجع السابق- ص ١٨٣
- ٤٧- المرجع نفسه- ص ١٦٩
- ٤٨- المرجع نفسه- ص ١٦٥- ١٦٦

□□□